



مَشورة قصير

وَقصَصٌ أخرَى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مَكتبة لبنان ناشِرون



مشورة قصير

وقصص أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد



مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٧

رقم الإيداع ١١٣٠٧ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي ٢ - ٠٢٢٩ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

رسوم : إيناس محمد عمارة

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الوَفاءُ النّادِر

« مالِكُ بْنُ أبي السَّمح » ، شابٌّ مِنْ قَبيلَةِ طَيِّئ ، ماتَ أبوهُ وَهُوَ صَغيرٌ ، فَنَشأَ يَتيماً يَرْعى أمَّهُ وَإخْوَةً لَهُ وَأَخَواتٍ ، يَتَكَسَّبُ عَيْشَهُ عَنْ طَريقِ الغِناءِ ؛ فَقَدْ مَنَحَهُ اللهُ صَوْتاً عَذْباً رَخيماً ، يَجْذِبُ إِلَيْهِ النُّفوسَ ، وَيَعْطِفُ نَحْوَهُ القُلوبَ .

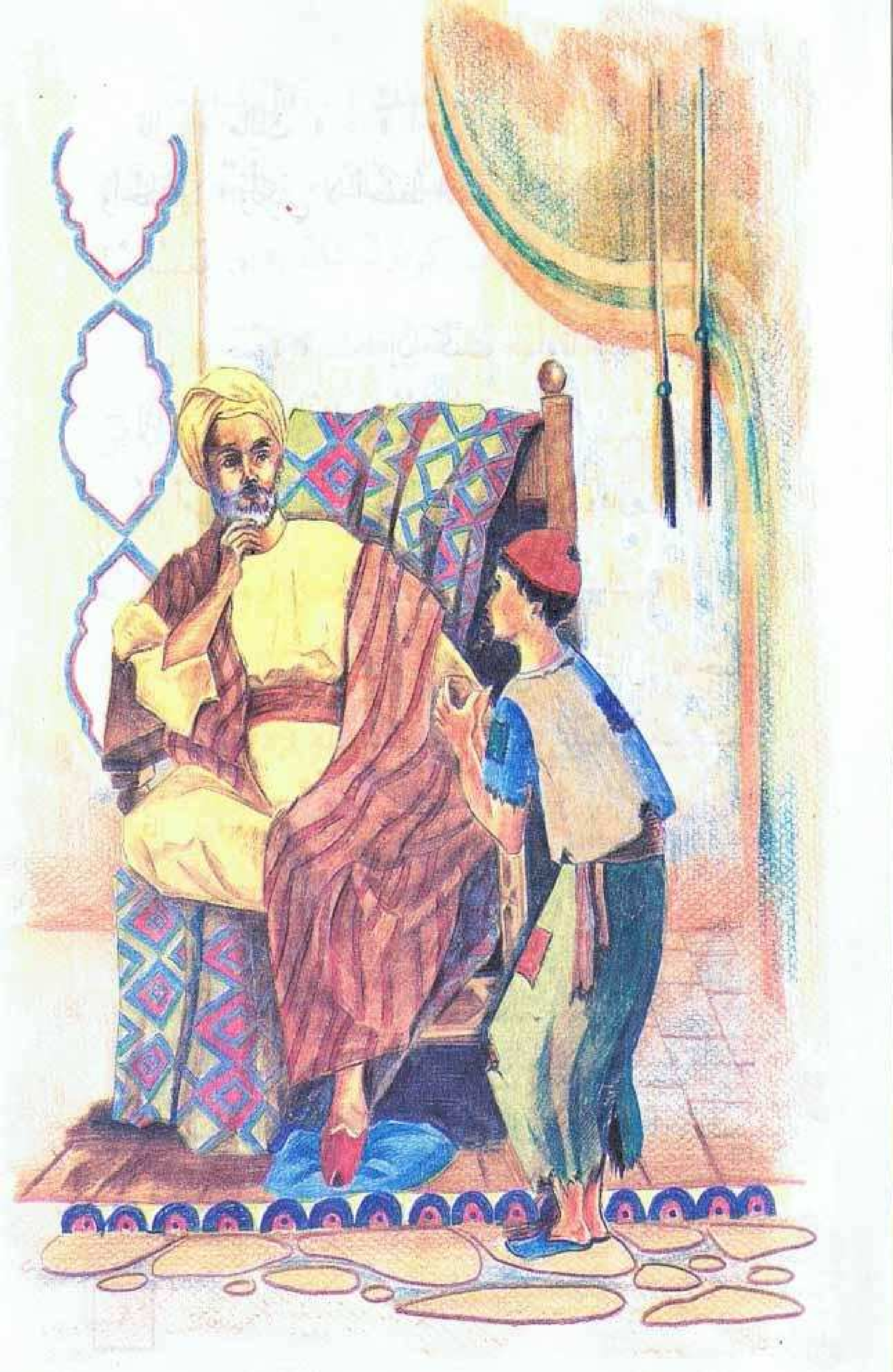
وَكانَ قانِعاً بِما قَسَمَهُ اللهُ لَهُ مِنْ رِزْقٍ ، يَعيشُ هُوَ وَأسْرَتُهُ في رِضاً وَاطْمِئْنانٍ ، وَلكِنَّ الدَّهْرَ لا يَمْضي عَلى حالٍ واحِدَةٍ ، فَقَدْ أصابَتْهُمْ سَنَةٌ جَدْباءُ ؛ شَحَّ فيها المَطَرُ ، وَهَلَكَ الزَّرْعُ ، وَنَفَقَتِ الماشِيَةُ ، وَمَسَّهُمُ الضُّرُّ . وَعَضَّهُمُ الجوعُ ؛ فَحَمَلَتْهُمْ أمُّهُمْ إلى المَدينَةِ ، لَعَلَّهُمْ يَجِدونَ فيها ما يَسُدُّ عَوَزَهُمْ ، وَيُشْبِعُ جَوْعَتَهُمْ .

أرْسَلَتْهُ أمُّهُ – كَما أرْسَلَتْ إخْوَتَهُ القادِمينَ – يَتَسَوَّلونَ في طُرُقاتِ المَدينَةِ ، فَاخْتارَ « مالِك » مَكاناً لِيُقيمَ فيهِ

سَحابَةَ نَهارِهِ يَسْأَلُ أجْوادَ النّاسِ ، وَيَسْتَجْدي كِرامَهُمْ . وَكانَ هَذا المَكانُ الَّذي وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيارُ « مالِك » بِجِوارِ بابٍ لِدارِ « حَمْزَة بن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَير » .

وَكانَ « مَعْبَد » المُغَنّي يَسْعى إلى دارِ « حَمْزَة » مَتى أشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، وَارْتَفَعَ الضُّحى ، فَيَتَّخِذُ مَجْلِسَهُ في بَهْوِ الدّارِ ، وَيَأْخُذُ في الغِناءِ بِصَوْتِهِ العَذْبِ الرَّخيمِ ، وَتَشيعُ في الجَوِّ ألحانُهُ الموسيقيَّةُ الحُلْوَةُ ، فَيَأْتَلِفُ الصَّوْتُ الجَميلُ ، وَاللَّحْنُ السّاحِرُ ؛ فَتَطْرَبُ لَهُما الآذانُ ، وَيَدْخُلانِ القُلوبَ بِغَيْرِ اسْتِئْذانٍ .

وَبَلَغَتْ هَذِهِ الألْحانُ السّاحِرَةُ مَسامِعَ « مالِك » وَهُوَ واقِفٌ بِجِوارِ البابِ يَسْتَجْدي ؛ فَمَلَكَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهُ وَحِسَّهُ ، وَاسْتَوْلَتْ عَلى قَلْبِهِ وَلُبِّهِ ، وَأصْبَحَ لا يُغادِرُ هَذا المَكانَ ، وَلا يَتَزَحْزَحُ عَنْهُ ؛ وَإنَّما هُوَ يَنْتَظِرُ الصَّباحَ في لَهْفَةٍ ، وَيَغْدو إلى بابِ « حَمْزة » في شَوْقٍ ، وَيُصْغي إلى ألْحانِ « مَعْبَد » وَهُوَ مَسْحورٌ ، وَيَظَلُّ نَهارَهُ كُلَّهُ في مَوْقِفِهِ ، حَتّى إذا ما جَنَّ اللَّيْلُ ، وَأظْلَمَتِ الدُّنْيا – راحَ إلى بَيْتِهِ ، وَيَدُهُ



خاوِيَةً، لَيْسَ فيها مِنْ عَطاءِ النّاسِ شَيْءٌ ؛ فَقَدْ ذَهِلَ عَنْ سُؤالِهِمْ - فَتَضْرِبُهُ أُمُّهُ ضَرْبًا مُؤْلِمًا ، وَهُوَ يُرَدِّدُ أَلْحانَ « مَعْبَد » ، وَيَتَرَنَّمُ بِها نَغَمًا بِغَيْرِ كَلِماتٍ؛ إِذْ هُوَ لَمْ يَحْفَظِ الأَبْياتَ الشِّعْرِيَّةَ الَّتي كانَ يَتَغَنّى بِها « مَعْبَد » ، وَإِنَّما الْتَقَطَتْ أُذُناهُ اللَّحْنَ ، فَوَعاهُ قَلْبُهُ ، وَانْطَبَعَ في نَفْسِهِ .

لاحَظَ « حَمْزَة » - وَهُوَ يَغْدو مِنْ بَيْتِهِ وَيَروحُ إِلَيْهِ - وَقْفَةَ هَذا الفَتى الأَعْرابِيِّ ، فَقالَ - ذاتَ مَرَّةٍ - لِخادِمِهِ :

« أَدْخِلْ هَذا الفَتى الأَعْرابِيَّ إِلَيَّ .»

فَأَدْخَلَهُ الخادِمُ ، وَلَمّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قالَ لَهُ « حَمْزَة » :

« مَنْ أَنْتَ ؟ وَما شَأْنُكَ ؟»

قالَ الفَتى : « أَنا شابٌّ مِنْ قَبيلَةِ طَيِّئ ، أَصابَنا القَحْطُ ، فَحَمَلَني وَمَعي أُمّي وَإِخْوَتي إِلى هُنا ، وَلَزِمْتُ بابَكَ أَتَسَوَّلُ ، فَإِذا بي أَسْمَعُ صَوْتًا شَجِيًّا يَنْبَعِثُ مِنْهُ أَطْرَبَني ، فَوَقَفْتُ عَلى بابِكَ مِنْ أَجْلِهِ .»

قالَ « حَمْزَة » : « هَلْ تَعْرِفُ مِنْ هَذا الغِناءِ شَيْئًا ؟»

قالَ « مالِكٌ » : « أجَلْ ، أعْرِفُ ألْحانَهُ كُلَّها ، وَأحْفَظُها ؛ وَلَكِنّي لا أحْفَظُ الشِّعْرَ الَّذي كانَ يُغَنّيهِ ؛ لأنّي لَمْ أسْمَعْهُ .»

قالَ « حَمْزَة » : « إنْ كُنْتَ صادِقًا فيما تَقولُ فَإنَّكَ – إذًا – لَذَكِيُّ الفُؤادِ ، مُرْهَفُ الحِسِّ .»

ثُمَّ أمَرَ خادِمَهُ أنْ يَدْعُوَ إلَيْهِ « مَعْبَد » ، وَقالَ لَهُ :

« أطْرِبْنا ، يا ‹‹ مَعْبَد ›› ، بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِكَ .»

وَغَنّى « مَعْبَد » فَأجادَ وَأشْجى . فَقالَ « حَمْزَة » لِـ « مالِك » : « هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تُعيدَ عَلَيْنا ما سَمِعْتَ ؟»

قالَ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدي .»

قالَ « حَمْزَة » : « هاتِ ما عِنْدَكَ .»

وَشَرَعَ « مالِك » يُغَنّي ما سَمِعَ مِنْ « مَعْبَد » فَأدّاهُ خَيْرَ أداءٍ : أدّاهُ نَغْمًا وَلَحْنًا بِغَيْرِ كَلِماتٍ ، يُؤَدّي مَدّاتِهِ وَأصْواتَهُ، وَنَبَراتِهِ وَعَطَفاتِهِ وَسَكَناتِهِ ، لَمْ يَحْذِفْ مِنْها شَيْئًا ، وَلَمْ يُغَيِّرْ فيها شَيْئًا ، وَلَمْ يَنْسَ مِنْها شَيْئًا .

اِهْتَزَّ « حَمْزَة » إعْجابًا بِـ« مالِك » ، وَقالَ لِـ« مَعْبَد » :

« خُذْ هَذا الفَتى ، وَضُمَّهُ إلَيْكَ ، وَعَلِّمْهُ فُنونَكَ ، وَدَرِّبْهُ عَلى الغِناءِ – فَسَوْفَ يَكونُ لَهُ شَأنٌ .»

قالَ « مَعْبَد » : « وَلِماذا أفْعَلُ ذَلِكَ ؟»

قالَ « حَمْزَة » : « حَتّى إذا نَبَغَ هَذا الفَتى ، وَتَفَوَّقَ في الغِناءِ – كانَ مَنْسوبًا إلَيْكَ .»

قالَ « مَعْبَد » : « صَدَقْتَ ، يا سَيِّدي ، وَسَأفْعَلُ ما بِهِ أمَرْتَ .»

ثُمَّ الْتَفَتَ « حَمْزَة » إلى « مالِك » ، وَقالَ لَهُ :

« كَيْفَ وَجَدْتَ الحالَ في مُلازَمَتِكَ بابَنا ؟»

أجابَ « مالِك » : « هَلْ تَوَدُّ ، يا سَيِّدي ، أنْ أقولَ فيكَ بِالحَقِّ أمْ بِالباطِلِ ؟»

قالَ « حَمْزَة » : « وَما الباطِلُ الَّذي لا تَوَدُّ أنْ تَقولَهُ ؟»

أجاب « مالِك » : « أنْ أقولَ فيكَ شَيْئًا لا تَسْتَحِقُّهُ ، أوْ

أنْ أحْمَدَكَ بِما لَمْ تَفْعَلْ .»

قالَ « حَمْزَة » : « وَما الحَقُّ الَّذي تَوَدُّ أنْ تَقولَهُ ؟»

أجابَ « مالك » : « وَاللهِ ، يا سَيِّدي ، ما شَبِعْتُ عَلى بابِكَ شَبْعَةً واحِدَةً ، وَلا رَجِعْتُ إلى أمّي وَإخْوَتي بِخَيْرٍ قَطُّ .»

أعْجَبَتْ « حَمْزَة » شَجاعَةُ « مالك » في الحَقِّ ، مِثْلَما أعْجَبَهُ غِناؤُهُ وَحِفْظُهُ ، فَمَنَحَهُ وَأهْلَهُ مَنْزِلاً يُؤْويهِمْ ، وَخادِماً يَخْدِمُهُمْ ، وَآخَرَ يَجْلِبُ لَهُمُ الماءَ ، ثُمَّ أعْطاهُمْ مِنَ المالِ ما يَقومُ بِهِمْ ، وَيُصْلِحُ شَأْنَهُمْ .. وَأجْلَسَ مالِكاً في مَجْلِسِهِ ، وَجَعَلَهُ مِنْ خُلَصائِهِ وَأصْفِيائِهِ ، وَرَغِبَ إلى « مَعْبَد » في أنْ يُعَلِّمَهُ وَيُدَرِّبَهُ ؛ حَتّى يَنْصَقِلَ ذَوْقُهُ ، وَيَبْزُغَ نَجْمُهُ .

وَلَمْ يَلْبَثْ « مالك » إلا فَتْرَةً مَحْدودَةً حَتّى مَهَرَ في الغِناءِ ، وَحَذَقَ صِناعَةَ الألْحانِ ، وَلَوْلا بَعْضٌ مِنْ حَياءٍ لَنافَسَ أسْتاذَهُ وَمُعَلِّمَهُ .

وَذاتَ يَوْمٍ كانَ في طَريقِهِ إلى دارِ « حَمْزَة » فَسَمِعَ امْرَأةً تَبْكي أخاها ، وَتُعَدِّدُ مآثِرَهُ ، وَتَتَفَجَّعُ لِمَوْتِهِ ، وَتَنوحُ عَلَيْهِ بِأبْياتٍ مِنَ الشِّعْرِ ، تُوَقِّعُها تَوْقيعاً مُؤَثِّراً ، فَأعْجَبَهُ لَحْنُها ، وَاهْتَزَّ لَهُ وِجْدانُهُ ، وَامْتَلأَ بِهِ قَلْبُهُ ، وَحُفِرَ في ذاكِرَتِهِ – وَشَرَعَ يُغَنّي هَذِهِ الأبْياتَ في لَحْنَيْنِ : أمّا أحَدُهُما فَسَلَكَ فيهِ طَريقَةَ « مَعْبَد » في صِناعَتِهِ الَّتي بَرَعَ فيها ، وأمّا الآخَرَ فَنَحا فيهِ طَريقَةَ نَوْحِ المَرْأةِ ، بَعْدَ أنْ أصْلَحَ فاسِدَهُ ، وَقَوَّمَ مُعْوَجَّهُ ، وَرَقَّقَ حاشِيَتَهُ .

وَدَخَلَ عَلى « حَمْزَة » ، فَقالَ لَهُ :

« سَيِّدي ، لَقَدْ صَنَعْتُ اليَوْمَ غِناءً في شِعْرٍ ، سَمِعْتُ بَعْضَ أهْلِ المَدينَةِ يُنْشِدونَهُ .. هَلْ تَأْذَنُ لي في أنْ أسْمِعَكَ إيّاهُ ؟»

أجابَ « حَمْزَة » : « هاتِ ما عِنْدَكَ .»

فَراحَ « مالك » يُغَنّي اللَّحْنَ الَّذي سارَ فيهِ عَلى طَريقَةِ « معبد » وَنحا نَحْوَهُ . فَهَتَفَ « حَمْزَة » ، وَهُوَ يَهْتَزُّ طَرَباً وَإعْجاباً : « أحْسَنْتَ ، يا « مالك » ، أحْسَنْتَ ! هَذا

الغِناءُ غِناءُ ‹‹ مَعْبَد ›› وَطَرِيقَتُهُ . لَقَدْ أَثْمَرَ تَعْلِيمُهُ ، وَظَهَرَتْ نَتيجَةُ تَدْرِيبِهِ .»

قالَ « مالِك » : « لا تَعْجَلْ ، يا سَيِّدي ، وَاسْمَعْ مِنّي غِناءً لَيْسَ مِنْ غِناءِ ‹‹ مَعْبَد ›› ، وَلا مِنْ طَرِيقَتِهِ .»

قالَ « حَمْزَة » : « هاتِ ما عِنْدَكَ .»

فَغَنّى « مالِك » اللَّحْنَ الَّذي تَشَبَّهَ فيهِ بِنَوْحِ المَرْأَةِ ، وَسَلَكَ طَرِيقَتَها .

طَرِبَ « حَمْزَة » لِما سَمِعَ طَرَبًا شَديدًا ، وَبَلَغَ مِنْهُ الإِعْجابُ بِـ « مالِكٍ » مَبْلَغًا كَبيرًا ، حَتّى إِنَّهُ أَلْقى عَلَيْهِ حُلَّةً كانَ يَلْبَسُها ، ثَمَنُها مائَةُ دينارٍ .

دَخَلَ « مَعْبَد » دارَ « حَمْزَة » فَرَأى « مالِكًا » يَرْتَدي الحُلَّةَ الَّتي خَلَعَها « حَمْزَة » عَلَيْهِ ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَضاقَتْ نَفْسُهُ ، وَساءَهُ ما بَلَغَ هَذا الفَتى مِنْ مَنْزِلَةٍ عِنْدَ « حَمْزَة » ، وَظَنَّ أَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَتَبَوَّأَ مَكانَهُ ، وَيَحْتَلَّ مَقْعَدَهُ .

عَلِمَ « حَمْزَة » بِما حَدَثَ ، فَاسْتَدْعى « مَعْبَدًا » إِلَيْهِ :

وَأَدْناهُ مِنْهُ ، وَأَخْبَرَهُ الخَبَرَ . ثُمَّ نادى « مالِكًا » ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُعيدَ ذَلِكَ الغِناءَ عَلى مَسامِعِ « مَعْبَد » .

فَلَمّا سَمِعَ « مَعْبَد » الصَّوْتَ الأَوَّلَ الَّذي يَسْلُكُ فيهِ طَرِيقَتَهُ – غَضِبَ غَضَبًا شَديدًا ، وَانْتَفَخَتْ أَوْداجُهُ ، وَقالَ :

« لَقَدْ كَرِهْتُ – مُنْذُ البِدايَةِ – أَنْ أَضُمَّ هَذا الفَتى إِلَيَّ ، وَأَقومَ بِتَعْليمِهِ وَتَدْرِيبِهِ ، حَتّى إِذا ما أَحْسَنَ الغِناءَ ، وَأَتْقَنَ الأَلْحانَ – أَخَذَ غِنائي وَلَحْني فَادَّعاهُ لِنَفْسِهِ .»

قالَ لَهُ « حَمْزَة » : « لا تَعْجَلْ ، يا ‹‹ مَعْبَد ›› ، وَإِلَيْكَ غِناءً لَيْسَ مِنْ غِنائِكَ ، وَلَحْنًا لَيْسَ مِنْ لَحْنِكَ ، وَطَرِيقًا لَيْسَ مِنْ طَرِيقِكَ .»

فَتَشَوَّقَتْ نَفْسُ « مَعْبَد » وَتَطَلَّعَ نَحْوَ « مالِك » ، وَأَمَرَهُ « حَمْزَة » أَنْ يُغَنِّيَ الصَّوْتَ الثّانِيَ ، الَّذي نَحا فيهِ طَرِيقَةَ المَرْأَةِ ، فَغَنّاهُ ؛ فَأَطْرَقَ « مَعْبَد » ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ .

وَسادَ المَجْلِسَ صَمْتٌ وَسُكونٌ ، قَطَعَهُ « حَمْزَة » بِقَوْلِهِ :

« يا ‹‹ مَعْبَد ›› ، لَوِ انْفَرَدَ ‹‹ مالِك ›› بِهَذا الغِناءِ

لِماثَلَكَ وَضارَعَكَ ، ثُمَّ أخَذَ يَتَزايَدُ على مَرِّ الأيّامِ ، وَيَعْلو شَأنُهُ ، وَكُلَّما كَبُرَ وَزادَ شِخْتَ أنْتَ وَنَقَصْتَ ، فَإذا نُسِبَ ازْدِيادُهُ وَعُلُوُّهُ إلَيْكَ كانَ أجْمَلَ وَأفْضَلَ .»

قالَ « مَعْبَد » ، وَهُوَ يُنْكِرُ ذَلِكَ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ :

« صَدَقْتَ ، يا سَيِّدي .»

وَأمَرَ « حَمْزَة » بِجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ ، وَعَطِيَّةٍ بَهِيَّةٍ لِـ « مَعْبَد »؛ فَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ ، وَطابَتْ نَفْسُهُ ، وَقَرَّتْ عَيْنُهُ .

ثُمَّ نَهَضَ « مالِك » مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَقامَ إلى « مَعْبَد » فَقَبَّلَ رَأسَهُ ، وَقالَ لَهُ :

« يا «أبا عُباد» ، أ ساءَكَ ما سَمِعْتَ مِنّي ؟ وَاللهِ لا أغَنّي لِنَفْسي شَيْئًا أبَدًا ما دُمْتَ أنْتَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ . وَلَوْ نازَعَتْني نَفْسي إلى شِعْرٍ أعْجَبَني ، فَصَنَعْتُ لَهُ لَحْنًا ، وَغَنَّيْتُهُ – لأنْسِبَنَّهُ إلَيْكَ ؛ فَطِبْ نَفْسًا ، وَارْضَ عَنّي ، وَلا تَنْزَعِجْ مِنّي .»

قالَ « معبد » : « أ وَ تَفْعَلُ ذَلِكَ حَقًّا ، وَتَفي بِهِ ؟»

أجابَ « مالِك » : « إي وَاللهِ ، وَأزيدُ عَلَيْهِ .»

وَلَبِثَ « مالِك » – حَتّى وَفاةِ « مَعْبَد » – إذا غَنّى صَوْتًا جَديدًا ، أوْ أنْشَأ لَحْنًا فَريدًا فَسُئِلَ عَنْهُ ، لَمْ يَنْسِبْهُ لِنَفْسِهِ ؛ وَإنَّما يَقولُ : « هَذا غِناءُ «مَعْبَد» ، ما غَنَّيْتُ لِنَفْسي شَيْئًا قَطُّ ، إنَّما هُوَ غِناءُ «مَعْبَد» ، آخُذُهُ فَأُحَسِّنُهُ بِالزِّيادَةِ عَلَيْهِ أوِ النَّقْصِ مِنْهُ .»

العِرقُ دَسّاس

تَسْتَطيعُ اليَوْمَ أنْ تَنْتَقِلَ مِنْ بَلَدِكَ إلى بَلَدٍ آخَرَ في زَمَنٍ وَجيزٍ ، لا تَجِدُ في سَفَرِكَ عُسْرًا ، وَلا تَتَكَلَّفُ فيهِ مَشَقَّةً ؛ فَأمامَكَ مِنْ وَسائِلِ المُواصَلاتِ القِطارُ والسَّيّارَةُ ، وَالباخِرَةُ وَالطَّيّارَةُ ، وَكُلُّها تَكْفُلُ لَكَ الرّاحَةَ وَالطُّمَأنينَةَ ، وَتُوَفِّرُ لَكَ الهُدوءَ وَالسَّكينَةَ ، وَتَضْمَنُ لَكَ السُّرْعَةَ في بُلوغِ ما تُريدُ .

وَلكِنَّ هَذِهِ لَمْ تَكُنْ حالَ أسْلافِنا في الزَّمَنِ القَديمِ ؛ فَقَدْ كانَتِ الرِّحْلَةُ لَدَيْهِمْ مُضْنِيَةً شاقَّةً ، عَسيرَةً مُجْهِدَةً ، يَمْتَطونَ ظُهورَ الإبِلِ ، وَيَضْرِبونَ في أكْبادِ الأرْضِ ،

الأجْوادِ ، الَّذينَ يَمْسَحونَ بِلِقائِهِمْ آلامَهُمْ ، وَيُزيلونَ بِكَرَمِهِمْ مَتاعِبَهُمْ .

وَهُمْ يُصادِفونَ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ أحْداثًا ، وَيَلْقَوْنَ مِنَ النّاسِ أصْنافًا ، وَتَظَلُّ هَذِهِ الذِّكْرَياتُ مَنْقوشَةً في صُدورِهِمْ ، يَقُصّونَها في لَيالي سَمَرِهِمْ ، وَيُمْضونَ بِها أوْقاتَ فَراغِهِمْ ، وَيَلْتَمِسونَ مِنْها الفائِدَةَ وَالعِبْرَةَ .

وَقَدْ جَلَسَ « عُثْمانُ بْنُ سُلَيْمانَ » في لَيْلَةٍ مِنْ هَذِهِ اللَّيالي الصَّيْفِيَّةِ ، الَّتي تَصْفو فيها السَّماءُ ، وَتَلْمَعُ النُّجومُ ، وَيَسْطَعُ القَمَرُ ، وَيَرِقُّ النَّسيمُ – جَلَسَ وَقَدْ تَحَلَّقَ حَوْلَهُ بَعْضُ قَوْمِهِ ، يَفْتَرِشونَ الرِّمالَ : فيهِمُ الشَّبابُ الَّذي لَمْ يُغادِرِ البَصْرَةَ قَطُّ ، وَلَمْ يَرْحَلْ عَنْها إلى بَلَدٍ آخَرَ بَعْدُ . وَفيهِمُ الكُهولُ الَّذينَ ذاقوا حَلاوَةَ الأسْفارِ وَمَرارَتَها .

لَمْ تَجْرُؤْ عَلى أَنْ تَطْلُبَ مِنْها ذَلِكَ ؛ فَقَدْ تُؤْلِمُها اسْتِعادَتُهُ. بَيْدَ أَنَّ ماوِيَّةَ قالَتْ : « سَأَرْوي لَكُنَّ الحِكايَةَ .»

قُلْنَ لَها : « وَنَحْنُ جَميعاً آذانٌ مُصْغِيَةٌ إِلَيْكِ ، يا ماوِيَّةُ .»

قالَتْ ماوِيَّةُ : « لَقَدْ كُنْتُ ، في بَدْءِ حَياتي مَعَ حاتِمٍ ، أُنْكِرُ عَلَيْهِ شِدَّةَ كَرَمِهِ ، وَأَراهُ إِسْرافًا وَتَبْذيراً وَأَرْغَبُ إِلَيْهِ في أَنْ يَقْتَصِدَ في جُودِهِ حَتّى يُبْقِيَ لأَبْنائِهِ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئًا مِنَ المالِ ، فَذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتْرُكَهُمْ فُقَراءَ يَتَكَفَّفونَ النّاسَ .

« وَكانَ حاتِمٌ يُنْكِرُ مِنّي هَذا القَوْلَ ، وَيَأْخُذُني بِاللُّطْفِ وَاللّينِ تارَةً ، وَبِالحَزْمِ وَالحَسْمِ تارَةً أُخْرى .

« وَكانَ ابْنُ عَمّي – مالِكٌ – قَدْ رَغِبَ في الزَّواجِ مِنّي ، وَلَكِنّي اخْتَرْتُ عَلَيْهِ حاتِماً . فَلَمّا آنَسَ مِنّي هَذا الإِنْكارَ عَلى حاتِمٍ انْتَهَزَ الفُرْصَةَ ، وَأَخَذَ يُوَسْوِسُ في أُذُنَيَّ: « ماذا تَصْنَعينَ بِحاتِمٍ ؟ إِنَّهُ يُبَدِّدُ ما يَجِدُ مِنْ مالٍ وَيُبَذِّرُهُ ، وَحينَ تَضيقُ ذاتُ يَدِهِ ، وَلا يَجِدُ مالاً – يَسْتَدينُ وَيُنْفِقُ . وَاللهِ ، لَيَتْرُكَنَّ أَوْلادَهُ عالَةً عَلى قَوْمِهِ ، لا يَجِدونَ

ما يُنْفِقونَ . طَلِّقي حاتِماً وَأَنا أَتَزَوَّجُكِ ؛ فَأَنا خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ ، وَأَكْثَرُ مالاً ، وَأَنا أُبْقي عَلَيْكِ وَعَلى أَوْلادِكِ ، وَأُخَلِّفُ لَكُمْ مِنَ المالِ ما يُغْنيكُمْ .»

« وَلَمْ يَزَلْ بي ، حَتّى قُلْتُ لَهُ : « صَدَقْتَ .»

« ثُمَّ طَلَّقْتُ حاتِماً !»

قالَتِ امْرَأَةٌ : « تَعْنينَ أَنَّكِ حَوَّلْتِ بابَ خِبائِكِ إِلى جِهَةٍ غَيْرِ الَّتي كانَ عَلَيْها ، كَما كانَ يَفْعَلُ بَعْضُ أَهْلِنا ، فَلَمّا جاءَ حاتِمٌ أَدْرَكَ ما تَقْصِدينَ ، وَوَلّى بَعيداً عَنْكِ ؟»

قالَتْ ماوِيَّةُ : « نَعَمْ ، كانَ بابُ بَيْتي إِلى المَشْرِقِ فَجَعَلْتُهُ إِلى المَغْرِبِ ، فَلَمّا جاءَ حاتِمٌ عَلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّني قَدْ طَلَّقْتُهُ . وَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقولُ لابْنِهِ عَدِيٍّ : « يا عَدِيُّ ، أَتَرى ما صَنَعَتْ أُمُّكَ ؟ ماذا حَدَثَ لَها ؟ »

« وَسَمِعْتُ عَدِيًّا يُجيبُهُ : « لا أَعْلَمُ عَنْها شَيْئًا ، يا أَبي ، غَيْرَ أَنَّني أَراها قَدْ غَيَّرَتْ بابَ خِبائِها .»

« وَكَأَنَّ عَدِيًّا لَمْ يَفْطِنْ لِما صَنَعْتُ ، وَلَمْ يُدْرِكِ الأَمْرَ

الَّذي وَقَعَ !»

قالَتِ امْرَأَةٌ : « عَجِّلي ، يا ماوِيَّةُ ، بِالحَديثِ ؛ فَقَدْ شَوَّقْتِنا لِبَقِيَّتِهِ .»

وَقالَتْ أخْرى : « إذاً كَيْفَ رَجَعْتِ إلى حاتِمٍ ؟ وَلِماذا لَمْ تَصْبِري عَلى مالِكٍ ؟»

قالَتْ ماوِيَّةُ : « لا تَسْتَعْجِلْنَ الحَديثَ ، وَلا يَذْهَبْ بِكُنَّ الظَّنُّ مَذاهِبَ شَتّى .»

ثُمَّ أرْدَفَتْ : « لَمّا رَأى حاتِمٌ ما حَدَثَ مِنّي ، وَفَهِمَ عَنّي ما أقْصِدُهُ - صَحِبَ ابْنَهُ عَدِيًّا فَهَبَطَ بِهِ بَطْنَ الوادي ، وَلَبِثَ هُناكَ لا أدْري ماذا كانَ يَصْنَعُ .

« وَفَجْأَةً نَزَلَ قَوْمٌ بِبابِ خِبائي كَما كانوا يَنْزِلونَ مِنْ قَبْلُ ، فَيَجِدونَ ما يُشْبِعُ جوعَهُمْ ، وَيُطْفِئُ ظَمَأَهُمْ ، وَيُذْهِبُ عَنْهُمْ مَتاعِبَ الطَّريقِ وَمَشاقَّها .

« وَكانَتْ عِدَّتُهُمْ خَمْسينَ رَجُلاً ، فَضِقْتُ بِهِمْ ذَرْعًا ، وَتَحَيَّرْتُ ماذا أصْنَعُ فيهِمْ ؟ وَكَيْفَ أخْبِرُهُمُ الخَبَرَ ؟

وَكَيْفَ أصُدُّهُمْ عَنِ الطَّعامِ الَّذي يَحْتاجونَهُ ، وَعَنِ الشَّرابِ الَّذي يَقْصِدونَهُ ؟ لَوْ فَعَلْتُ لَظَنَّ بِيَ القَوْمُ بُخْلاً وَجُبْنًا ، وَرَمَوْني بِذَلِكَ ، وَشاعَ في العَرَبِ صَنيعي ، وَتَحَمَّلْتُ عارَهُ حَياتي !»

قالَتِ امْرَأَةٌ : « إذاً ، ماذا فَعَلْتِ ؟»

قالَتْ ماوِيَّةُ : « دَعَوْتُ جارِيَتي ، وَقُلْتُ لَها :

«« اذْهَبي إلى مالِكٍ ، فَقولي لَهُ : إنَّ أضْيافًا لِحاتِمٍ قَدْ نَزَلوا بِبابِنا ، وَهُمْ لا يَعْلَمونَ بِذَهابِهِ ، وَإنَّ عَدَدَهُمْ خَمْسونَ رَجُلاً ، فَابْعَثْ إلَيْنا ناقَةً نَذْبَحُها ، وَنُقَدِّمُ لَهُمُ الطَّعامَ ، وَابْعَثْ إلَيْنا لَبَنًا نَسْقيهِمْ .»»

« فَلَمّا جاءَتِ الجارِيَةُ مالِكًا وَجَدَتْهُ مُضْطَجِعًا عَلى جَنْبِهِ، وَقَدِ اتَّخَذَ وِعاءَ اللَّبَنِ وِسادَةً لَهُ ، فَأيْقَظَتْهُ ، وَأبْلَغَتْهُ رِسالَتي . وَقالَتْ لَهُ :

«« إنَّما هِيَ اللَّيْلَةُ فَحَسْبُ ، حَتّى يَعْلَمَ النّاسُ مَكانَكَ وَمَكانَ حاتِمٍ فَلا يَأتونَ إلَيْنا .»»

« اِعْتَدَلَ مالكٌ في جِلْسَتِهِ ، وَنَظَرَ إلى جارِيَتي دَهِشاً مَذْعوراً ، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلى صَدْرِهِ ، وَقالَ لَها : ‹‹ اِذْهَبي إلى مَوْلاتِكِ ، وَبَلِّغيها سَلامي ، وَقولي لَها : هَذا هُوَ الَّذي مِنْ أَجْلِهِ طَلَبْتُ إِلَيْكِ أَنْ تُطَلِّقي حاتِماً . لَيْسَ عِنْدي ناقَةٌ طاعِنَةٌ في السِّنِّ حَتّى أَنْحَرَها ، وَما كُنْتُ لأَذْبَحَ لِضُيوفِ حاتِمٍ أَوْ غَيْرِهِ ناقَةً غَنِيَّةً بِلَحْمِها وَشَحْمِها ، وَلَيْسَ عِنْدي مِنَ اللَّبَنِ ما يَكْفي هَؤُلاءِ الخَمْسينَ .››

« وَعادَتْ إِلَيَّ الجارِيَةُ خاوِيَةً خائِبَةً ، وَحَكَتْ لي ما حَدَثَ ، فَقُلْتُ لَها : ‹‹ وَيْحَكِ ! اِذْهَبي مُسْرِعَةً إلى حاتِمٍ في بَطْنِ الوادي ، فَقولي لَهُ : إِنَّ أَضْيافَكَ قَدْ حَلُّوا بِبابِنا هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، وَلَمْ يَعْلَموا بِمَكانِكَ ، فَابْعَثْ إِلَيْنا ما نُوَفِّيهِمْ بِهِ حَقَّهُمْ ؛ فَإِنَّما هِيَ اللَّيْلَةُ حَتّى يَعْرِفوا مَكانَكَ ، وَيَنْزِلوا بِساحَتِكَ .››

« أَسْرَعَتِ الجارِيَةُ إلى حاتِمٍ ، وَصاحَتْ بِهِ ، فَقالَ حاتِمٌ : ‹‹ لَبَّيْكِ ! قَريباً نادَيْتِ ، وَسَميعاً دَعَوْتِ .››

« فَقالَتِ الجارِيَةُ : ‹‹ إِنَّ ماوِيَّةَ تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ ، وَتَقولُ لَكَ : إِنَّ أَضْيافَكَ قَدْ نَزَلوا بِنا اللَّيْلَةَ ، فَابْعَثْ إِلَيْنا ما نُطْعِمُهُمْ بِهِ ، وَنَسْقيهِمْ مِنْهُ .››

« قالَ حاتِمٌ : ‹‹ نَعَمْ ، وَأَبي !››

« ثُمَّ انْطَلَقَ إلى إِبِلِهِ ، فَنَظَرَ إِلَيْها نَظْرَةً فاحِصَةً سَريعَةً ، وَاخْتارَ مِنْ بَيْنِها اثْنَيْنِ مُمْتَلِئَيْنِ لَحْماً ، مُكْتَنِزَيْنِ شَحْماً ، فَأَطْلَقَهُما مِنْ عِقالَيْهِما ، وَفَكَّ قُيودَهُما ، وَساقَهُما أَمامَهُ ،

وَالجارِيَةُ مِنْ وَرائِهِ ، حَتّى أتى بابَ الخِباءِ ، فَضَرَبَ عُرْقوبَيْهِما ، ثُمَّ نَحَرَهُما .

« وَطَفِقْتُ أصيحُ بِهِ : ‹‹ هَذا ما طَلَّقْتُكَ فيهِ ! تَتْرُكُ وَلَدَكَ وَلَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ !››

« قالَ حاتِمٌ : ‹‹ لا تَلومي وَلا تَعْذِلي ، يا ماوِيَّةُ ، وَلا تُكْثِري مِنَ الحَديثِ عَنِ المالِ الَّذي نَقْري بِهِ الضُّيوفَ ، وَنُخَفِّفُ بِهِ عَنْهُمْ مَشاقَّ الطَّريقِ ؛ فَذَلِكَ لَوْنٌ مِنَ البُخْلِ أنْتِ أكْبَرُ مِنْ أنْ تَخوضي فيهِ . إنَّ البَخيلَ ، يا ماوِيَّةُ ، لا يَرى لِلْمالِ غَيْرَ طَريقٍ واحِدَةٍ ، هِيَ جَمْعُهُ وَتَحْصيلُهُ وَالحِرْصُ عَلَيْهِ ؛ خَوْفَ النَّفادِ وَالفَقْرِ . أمّا الكَريمُ فَيَرى في مالِهِ طُرُقًا مُخْتَلِفَةً ، وَسُبُلاً مُتَنَوِّعَةً ، وَلَنْ يُضامَ كَريمٌ ، وَلَنْ يَشْقى جَوادٌ .››

« قُلْتُ لَهُ : ‹‹ نِعْمَ القَوْلُ قَوْلُكَ ، وَنِعْمَ الزَّوْجُ أنْتَ ، وَنِعْمَتِ الحَياةُ مَعَكَ !››»

مَشورَةُ قصير

أدارَ الطَّمَعُ رَأسَهُ ، وَلَعِبَ بِعَقْلِهِ ، فَلَمْ يَقْنَعْ بِمُلْكِهِ ، وَمَدَّ عَيْنَيْهِ إلى ما في يَدِ غَيْرِهِ ، لَقَدْ كانَ « جَذيمةُ بْنُ الأبرش » ، المَلِكُ التَّنوخِيُّ ، يَمْلِكُ مِنَ العِراقِ ما عَلى شاطِئِ نَهْرِ الفُراتِ ، وكانت « الزَّبّاءُ » تَمْلِكُ مِنَ العِراقِ أرْضَ الجَزيرَةِ ، وَكانَتْ تُكِنُّ في أعْماقِها لِـ « جَذيمة » كُرْهًا شَديدًا ، وَتُضْمِرُ لَهُ بُغْضًا عَميقًا ، وَتَنْتَظِرُ الفُرْصَةَ السّانِحَةَ لِتَنْتَقِمَ مِنْهُ انْتِقامًا مُريعًا ؛ فإنَّ لَها عِنْدَهُ لَثأرًا – لَقَدْ قَتَلَ أباها ذاتَ يَوْمٍ !

اِنْتَظَمَ لِـ « الزَّبّاءِ » شَمْلُ مُلْكِها ، وَاسْتَجْمَعَتْ قُواها ، فَكانَ أوَّلَ ما فَكَّرَتْ فيهِ أنْ تَغْزُوَ « جَذيمة » ، وَتُرَوِّعَ مَأمَنَهُ ، وَتُشَتِّتَ شَمْلَهُ ، وَلَكِنَّها – حينَ أمْعَنَتِ التَّفكيرَ – رَأتْ أنَّ طَريقَ الحَرْبِ مَحفوفَةٌ بِالمَخاطِرِ ، وَمَفْروشَةٌ بِالْمَهالِكِ .

فَلْتَسْلُكْ – إذاً – طَرِيقَ المَكْرِ وَالحيلَةِ ؛ فَقَدْ تُسْعِفُها الحيلَةُ وَتَبْلُغُ بِالمَكيدَةِ ما لا تَبْلُغُهُ بِالحَرْبِ وَالطِّعانِ .

أَرْسَلَتْ إلى « جَذيمة » كِتاباً ، تَسْتَثيرُ فيهِ مَطامِعَهُ ، وَتوقِظُ فيهِ حُبَّهُ لِلتَّمَلُّكِ وَالتَّوَسُّعِ ؛ فَقَدْ أَنْبَأَتْهُ أَنَّها تَرى فيهِ مَلِكاً ذا أَيْدٍ وَقُوَّةٍ ، وَصاحِبَ رأيٍ وَتَدْبيرٍ ، وَأَنَّها رَأَتْ بَعْدَ طولِ تَفْكيرٍ – أَنَّ مُلْكَ النِّساءِ لا تَقْبَلُهُ العامَّةُ ، وَلا تَسوغُهُ الخاصَّةُ ، وَأَنَّهُ تَنْقُصُهُ العَزيمَةُ الصّارِمَةُ ، وَالقِيادَةُ الحازِمَةُ ، وَأَنَّها لا تَرى مَلِكاً غَيْرَهُ أَجْدَرَ بِمُلْكِها ، وَلا أَكْفَأَ لِلزَّواجِ مِنْها ، فَماذا عَلَيْهِ لَوْ أَقْبَلَ إِلَيْها ، فَجَمَعَ مُلْكَها إلى مُلْكِهِ ، وَ وَصَلَ بَيْنَ بِلادِها وبِلادِهِ ، وَتَوَلّى أَمْرَها مَعَ أَمْرِهِ ؟

لَمّا قَدِمَ رُسُلُ « الزَّبّاء » عَلى « جَذيمة » ، وَسَلَّموهُ كِتابَها ، وَقَدَّموا إِلَيْهِ هَداياها – اِسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ وَالسُّرورُ ، وَتَمَلَّكَهُ العُجْبُ وَالغُرورُ . وَرَغِبَ رَغْبَةً قَوِيَّةً عارِمَةً فيما دَعَتْهُ إِلَيْهِ ، وَسَيْطَرَ عَلَيْهِ طَمَعُهُ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ شَهْوَةُ المُلْكِ، فَطَرَحَ حَذَرَهُ وَنَسِيَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَها مِنْ ثَأْرٍ ، وَباتَ يَتَطَلَّعُ – في شَوْقٍ – إلى اليَوْمِ الَّذي يَضُمُّ فيهِ مُلْكَها إلى مُلْكِهِ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبْرِمْ أَمْراً ، وَلَمْ يَتَّخِذْ قَراراً ، حَتّى جَمَعَ أَهْلَ الحِجا وَالعَقْلِ مِنْ مُسْتَشاريهِ ، وَأُولي الرَّأْيِ مِنْ وُزَرائِهِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ دَعْوَةَ « الزَّبّاء » وَكَشَفَ لَهُمْ عَنْ مَزاياها ، وَهُمْ يُدْرِكونَ رَغْبَتَهُ في التَّوَسُّعِ ، وَيَعْرِفونَ حِرْصَهُ عَلى التَّكاثُرِ ، فَلَمْ يُصادِموا رَأْيَهُ ، وَلَمْ يُعانِدوا فِكْرَهُ ، وَإِنَّما زَيَّنوا لَهُ أَنْ يَسيرَ إِلَيْها ، وَيَسْتَوْلِيَ عَلى مُلْكِها ، وَيَكْسِرَ شَوْكَتَها ؛ فَلا تَقومَ لَها بَعْدَ ذَلِكَ قائِمَةٌ .

اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلى ذَلِكَ إلا رَجُلٌ واحِدٌ مِنْهُمْ ، كانَ أَريباً عاقِلاً ، ناصِحاً حازِماً ، اسْمُهُ « قَصير » . وَكانَ « جَذيمة » يَعْرِفُ لَهُ سَدادَ رَأْيِهِ ، وَإِخْلاصَ مَشورَتِهِ ، وَصِدْقَ وَلائِهِ . دَنا « قَصير » مِنَ المَلِكِ ، وَقالَ لَهُ :

« يا مَوْلايَ ، لَقَدْ أَشارَ هَؤُلاءِ بِالرَّأْيِ الفَطيرِ ، لَمْ يَتَثَبَّتوا في الأَمْرِ ، وَلَمْ يُنْعِموا التَّفْكيرَ فيهِ ، وَلَمْ يُقَلِّبوهُ عَلى وُجوهِهِ .»

قالَ « جَذيمة » : « وَماذا تَرى ، يا «« قَصير »» ؟»

قالَ « قصير » : « الرَّأيُ عِنْدي ، يا مَوْلايَ ، أنْ تَكْتُبَ إلَيْها ، تَدْعوها لِزِيارَتِكَ ، فإنْ كانَتْ صادِقَةً فيما عَرَضَتْهُ عَلَيْكَ أقْبَلَتْ ، فَأحْسَنْتَ اسْتِقْبالَها ، وإنْ كانَتِ الأخْرى لَمْ تُمَكِّنْها مِنْ نَفْسِكَ ، وَلَمْ تَقَعْ في شِراكِها ، وَما أظُنُّهُ قَدْ غابَ عَنْكَ أنَّكَ واتِرُها وَقاتِلُ أبيها .»

شَعَرَ « جَذيمة » أنَّ رَأيَ « قَصير » يُعارِضُ مَطامِعَهُ ، وَيُطْفِئُ نارَ رَغْبَتِهِ ، وَيُحيلُها رَماداً بارِداً ، فَقالَ لَهُ :

« رَأيُكَ ، يا « قَصير » ، رَأيُ مَنْ يَخافُ ضَوْءَ الشَّمْسِ وَضُحاها ، وَيَتَسَتَّرُ بِالظِّلالِ ، وَيَحْتَمي خَلْفَ الأبْوابِ .»

ثُمَّ دَعا « جَذيمة » ابْنَ أخْتِهِ « رَقاش » « عَمرو بْنَ عَدِيّ » ، فَاسْتَشارَهُ فيما دَعَتْهُ إلَيْهِ « الزَّبّاء » ، فَحَبَّبَ إلَيْهِ المَسيرَ ، وَشَجَّعَهُ عَلَيْهِ ، وَقالَ لَهُ : « إنَّ قَوْمِيَ اللَّخْميِّينَ تَحْتَ مُلْكِ « الزَّبّاء » وَسَطْوَتِها ، فَإذا رَأوْكَ قَدْ سِرْتَ إلَيْها صاروا مَعَكَ ، وَانْضَوَوْا تَحْتَ لِوائِكَ .»

أحَبَّ « جَذيمة » هَذا القَوْلَ ، وَرَضِيَ عَنْهُ ، وَسَعِدَ بِهِ ،

وَأهْمَلَ رَأيَ « قصير » ، وَعصاهُ ، فَقالَ « قصير » :

« لا يُطاعُ لِـ « قَصير » أمْرٌ .»

أعَدَّ « جَذيمة » لِلْمَسيرِ عُدَّتَهُ ، وَاتَّخَذَ لَهُ أهْبَتَهُ ، وَصَحِبَ مَعَهُ بَعْضَ كُبَراءِ مُلْكِهِ وَسُلْطانِهِ ، وَتَرَكَ ابْنَ أخْتِهِ « عَمْرو بْنَ عَدِيّ » نائِباً عَنْهُ .

لَمّا أصْبَحَ قَرِيباً مِنْ مَمْلَكَةِ « الزَّبّاء » نَزَلَ وَنَزَلَ مَعَهُ صَحْبُهُ ، وَدَعا إلَيْهِ « قَصير » ، وَقالَ لَهُ :

« ما الرَّأيُ عِنْدَكَ ، يا « قَصير » ؟»

قالَ « قصير » : « لَقَدْ خَلَّفْتُ الرَّأيَ وَرائي ، فَما عِنْدي مِنْهُ الآنَ شَيْءٌ .»

قالَ المَلِكُ : « وَما ظَنُّكَ بِـ « الزَّبّاء » ؟»

قالَ « قَصير » : « قَدْ يَحْلو القَوْلُ في الأذُنِ ، وَتَميلُ إلَيْهِ النَّفْسُ ؛ وَلَكِنَّ الحَزْمَ يَسْتَوْجِبُ الخَوْفَ ، وَ الحِرْصَ.»

خَرَجَتْ رُسُلُ « الزَّبّاء » تَسْتَقْبِلُ المَلِكَ « جَذيمة » بِالتَّحايا ، وَتُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ الهَدايا ، وَتُبالِغُ في إعْزازِهِ

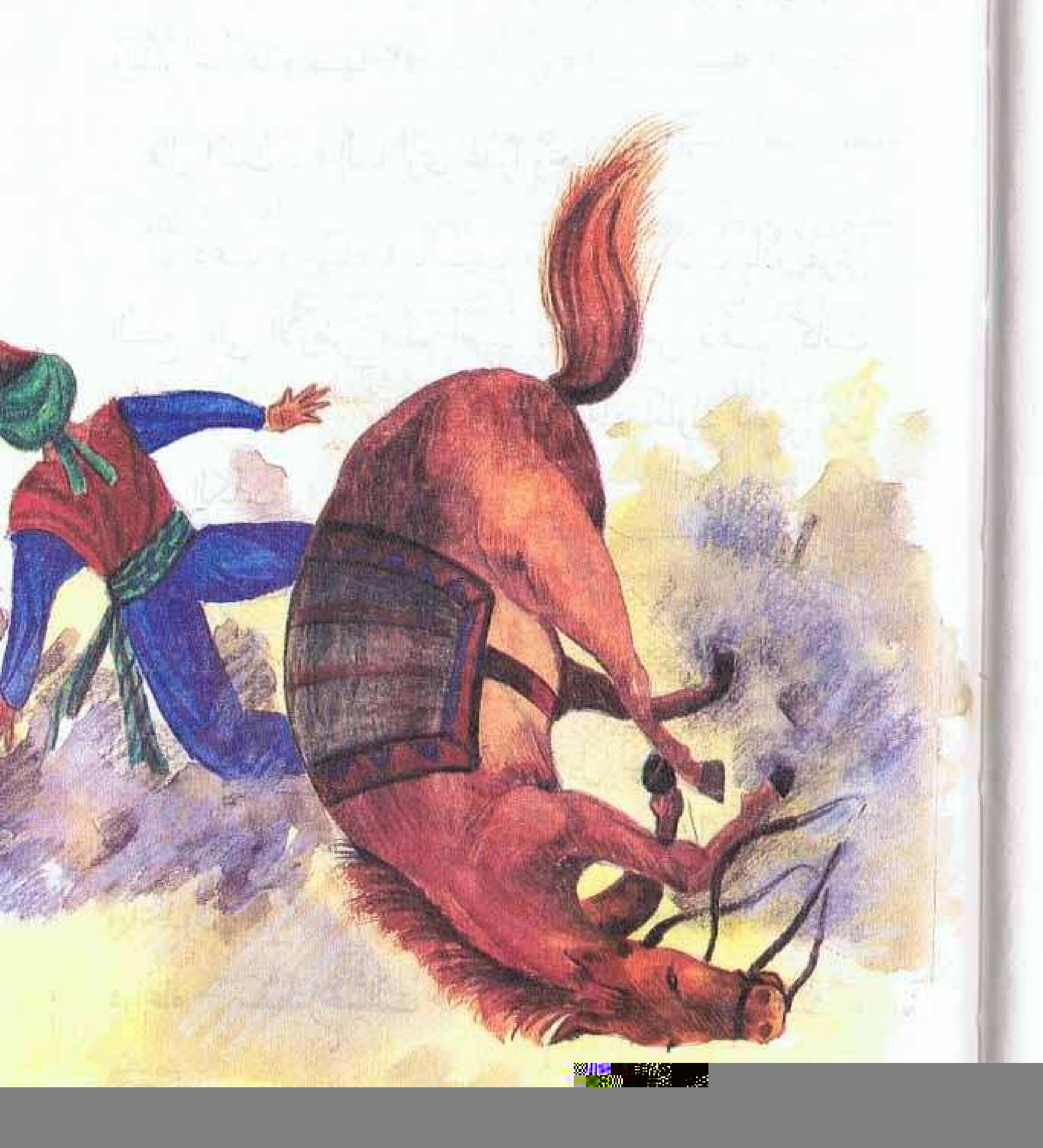
وَتَكْريمِهِ ، وَتُطْنِبُ في إجْلالِهِ وَتَوْقيرِهِ ؛ مِمّا زادَهُ تيهاً وَصَلَفاً ، وَمَلأهُ عُجْباً وَكِبْراً ، فَقالَ :

« يا « قَصير » ، كَيْفَ تَرى ؟ »

قالَ « قَصير » : « أرى تَعْظيماً وَإجْلالاً ، يَخْتَفي وَراءَهُما أمْرٌ خَطيرٌ ، وَخَطْبٌ جَليلٌ . إنَّهُ سَتَلْقاكَ بَعْدَ قَليلٍ جُيوشُها ، فَإنْ سارَتْ هَذِهِ الجُيوشُ أمامَكَ فَالمَرْأةُ صادِقَةٌ فيما زَعَمَتْ ، راغِبَةٌ فيما عَرَضَتْ . أمّا إنْ أخَذَتِ الجُيوشُ جانِبَيْكَ ، وَأحاطَتْ بِكَ مِنْ خَلْفِكَ - فاعْلَمْ أنَّ القَوْمَ غادِرونَ وَحينَئِذٍ عَلَيْكَ أنْ تَرْكَبَ فَرَسَكَ « العَصا » ؛ فَإنَّهُ لا يُشَقُّ لَها غُبارٌ ، وَلا يَلْحَقُها فارِسٌ مِغْوارٌ ، وَسَأرْكَبُها وَأسيرُ بِها إلى جِوارِكَ ؛ لِتَكونَ مِنْكَ قَريبَةً ، وَلَكَ مُنْقِذَةً . »

لَقِيَتْهُ خُيولُ « الزَّبّاء » وَكَتائِبُها ، وَأحاطَتْ بِهِ جُيوشُها وَفُرْسانُها ، وَحالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَرَسِهِ « العَصا » فَأيْقَنَ « قَصير » صِدْقَ حَدْسِهِ ، وَعَلِمَ صَوابَ رَأيِهِ ، فَوَلّى الأدْبارَ عَلى ظَهْرِ « العَصا » ، وَنَظَرَ إلَيْهِ « جَذيمة » مُوَلِّياً ، وَهُوَ يُرَدِّدُ في نَفْسِهِ : « يا لَهُ مِنْ حازِمٍ عَلى ظَهْرِ « العَصا » » !

جَرَتِ العَصا بِـ « قَصير » ما وَسِعَها الجَرْيُ ، لَمْ يَمَسَّها التَّعَبُ ، وَلَمْ يُدْرِكْها النَّصَبُ ، حَتّى قَطَعَتْ أرْضاً بَعيدَةً ، ثُمَّ إذا هِيَ - فَجْأةً - تَسْقُطُ نافِقَةً !



وَلكِنَّ الحسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَأخاهُ الحُسَيْنَ وَابْنَ عَمِّهِما عَبْدَ اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ عَزَموا على الحَجِّ ، فَأعَدّوا العُدَّةَ ، وَاتَّخَذوا الأهْبَةَ ، وَحمَلَتِ الجِمالُ وَالبِغالُ الأمْتِعَةَ وَالزّادَ ، وَتَحَرَّكَتِ القافِلَةُ تَبْتَغي وَجْهَ اللهِ .

سارَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ يَتَجاذَبونَ أطْرافَ الحَديثِ ، وَيَتَنَقَّلونَ بِهِ في مَوْضوعاتٍ شَتّى ، وَتَثورُ في نُفوسِهِمُ الذِّكْرَياتُ – ذِكْرَياتُ خُروجِ الرَّسولِ الكَريمِ وَالمُسْلِمينَ مُهاجِرينَ مِنْ مَكَّةَ إلى المَدينَةِ ، بَعْدَ أنْ آذاهُمُ الكُفّارُ إيذاءً شَديداً ، وَذِكْرَياتُ صَدِّ الكُفارِ لِلْمُسْلِمينَ عَنِ العُمْرَةِ عامَ الحُدَيْبِيَةِ ، وَكَيْفَ فَتَحَ اللهُ عَلى المُسْلِمينَ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ ، وَأصْبَحَتِ الطَّريقُ إلَيْها الآنَ مَفْتوحَةً ، يَأتي إلَيْها الحُجّاجُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ .

شَغَلَتْهُمْ هَذِهِ الذِّكْرَياتُ العَميقَةُ ، الَّتي اسْتَوْلَتْ عَلى نُفوسِهِمْ ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِمْ أفْئِدَتَهُمْ ، فَلَمْ يَفْطَنوا إلى أنَّ قافِلَتَهُمْ قَدْ سَبَقَتْهُمْ ، وَبَعُدَ ما بَيْنَها وَبَيْنَهُمْ – لَمْ يَفْطَنوا إلى ذَلِكَ إلا حينَ أحَسّوا بِالحاجَةِ إلى الطَّعامِ وَالشَّرابِ ؛

فَتَلَفَّتوا حَوْلَهُمْ ، وَأدْرَكوا ما هُمْ فيهِ . الظَّمأ يَكادُ يَقْتُلُهُمْ وَالجوعُ يَقْرُصُ أمْعاءَهُمْ قَرْصاً شَديداً ، وَهُمْ بَيْنَ الظَّمإِ القاتِلِ ، والجوعِ المُهْلِكِ ، وَالصَّحْراءِ المُترامِيَةِ الأطْرافِ ، الخالِيَةِ مِنَ الأنيسِ – يَخْشَوْنَ الهَلاكَ !

اسْتَمَرّوا في سَيْرِهِمْ ، شَديدي الانْتِباهِ ، حَريصينَ عَلى التَّلَفُّتِ يَميناً وَشِمالاً ، عَلَّهُمْ يَجِدونَ مَلْجَأً يَلْتَجِئونَ إلَيْهِ ، وَمَلاذاً يَلوذونَ بِهِ ، فَيَجِدوا ما يَبُلُّ حُلوقَهُمْ مِنْ ماءٍ ، وَيُسْكِتُ أمْعاءَهُمْ مِنْ طَعامٍ . وَبَيْنَما هُمْ في هَذِهِ الحالِ المُوئِسَةِ إذْ أبْصَرَ أحَدُهُمْ خِباءً ؛ فَسَرَتِ الفَرْحَةُ في صُدورِهِمْ ، وَرُدَّتْ إلَيْهِمْ نُفوسُهُمْ ، وَاتَّجَهوا إلَيْهِ يُسْرِعونَ بِقَدْرِ ما تُسْعِفُهُمْ بِهِ قُوَّتُهُمْ .

وَجَدوا في الخِباءِ عَجوزاً مَعْروقَةً ، نالَتْ مِنْها السِّنونَ مَنالاً شَديداً ، فَقالَ لَها أحَدُهُمْ : « يا أمّاهُ ، هَلْ نَجِدُ لَدَيْكِ شَراباً ؟ »

قالَتْ : « نَعَمْ ، يا وَلَدي . »

فَأناخوا إبِلَهُمْ ، وَتَقَدَّموا نَحْوَها ، يَلْتَمِسونَ الشَّرابَ ،

فَقالَتْ : « لَيْسَ عِنْدي غَيْرُ هَذِهِ الشّاةِ الصَّغيرَةِ ، اِحْلِبوها واشْرَبوا لَبَنَها . »

فَعَلوا ما أشارَتْ بِهِ العَجوزُ ، ثُمَّ قالَ لَها أحَدُهُمْ : « هَلْ نَجِدُ عِنْدَكِ طَعامًا ؟ »

قالَتْ : « لا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الشُّوَيْهَةِ ، فَلْيَذْبَحْها أحَدُكُمْ ، وَسأهَيِّئُ لَكُمْ مِنْها طَعامًا . »

قامَ أحَدُهُمْ إلى الشُّوَيْهَةِ – الَّتي شَرِبوا لَبَنَها مِنْ قَبْلُ – فَذَبَحَها ، ثُمَّ كَشَطَ جِلْدَها عَنْ لَحْمِها ، وَقامَتِ المَرْأةُ العَجوزُ إلى قِدْرِها فَأوْقَدَتْ تَحْتَها النّارَ ، وَما إنْ نَضِجَ اللَّحْمُ حَتّى صَنَعَتْ لَهُمْ ثَريدًا مِنْ كِسْراتِ خُبْزٍ لَدَيْها ، فَأكَلوا

وَأقاموا عِنْدَها حَتّى هَدَأَتْ ثائِرَةُ الشَّمْسِ ، وَبَرَدَ الجَوُّ ، فَقاموا يَرْتَحِلونَ ، حينَئِذٍ قالَ لَها أحَدُهُمْ :

« نَحْنُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، نَسْكُنُ المَدينَةَ المُنَوَّرَةَ ، وَنَقْصِدُ الآنَ مَكَّةَ ، فَإنْ رَجَعْنا سالِمينَ فَألِمّي بِنا ؛ فَإنَّنا صانِعونَ إلَيْكِ خَيْرًا ، إنْ شاءَ اللهُ . »



ارْتَحَلَ القَوْمُ ، وَأَقْبَلَ زَوْجُ العَجوزِ ، فَأَخْبَرَتْهُ خَبَرَها ، وَقَصَّتْ عَلَيْهِ حِكايَتَها ، فَصاحَ بِها :

« وَيْحَكِ ، يا عَجوزُ ! تَذْبَحينَ شاتي لِقَوْمٍ لا نَعْرِفُهُمْ ، ثُمَّ تَقولينَ لي نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ !»

قالَتِ العَجوزُ : « لَقَدْ شَمَمْتُ فيهِمْ ريحاً طَيِّبَةً أَعْرِفُها وَلا أُحَقِّقُها ، وَشَذا عِطْرٍ أَحْدُسُهُ وَلا أَتَيَقَّنُهُ . إِنَّهُمْ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ، وَمِنْ آلِ الرَّسولِ الكَريمِ ، إِنْ صَدَقَ ظَنّي ، وَلَمْ يَخِبْ حَدْسي . وَما صَنَعْناهُ لَهُمْ قُرْبى عِنْدَ اللهِ .»

وَدارَتِ الأَيّامُ دَوْرَتَها ، وَاشْتَدَّتِ الحاجَةُ بِكُلٍّ مِنَ العَجوزِ وَ زَوْجِها ، وَأَلْجَأَتْهُما إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَ راحا يَلْتَقِطانِ بَعْرَ الإِبِلِ مِنْ طُرُقاتِها ، وَيَبيعانِهِ ، وَيَعيشانِ بِثَمَنِهِ. فَمَرَّتِ العَجوزُ بِبَعْضِ سِكَكِ المَدينَةِ ، تَصْنَعُ صَنيعَها ، فَإِذا الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ واقِفٌ أَمامَ بابِ دارِهِ ، فَعَرَفَ العَجوزَ ، وَأَدْرَكَ ما تُعانيهِ ، وَقَدَّرَ لَها عِزَّةَ نَفْسِها ، وَصَوْنَها لِكَرامَتِها ؛ حَيْثُ أَبَتْ عَلَيْها كِبْرِياؤُها أَنْ تَتَسَوَّلَ النّاسَ ، وَراحَتْ تَعْمَلُ وَتَأْكُلُ مِنْ كَدِّها .

بَعَثَ الحَسَنُ غُلامَهُ إِلى العَجوزِ فَدَعاها إِلَيْهِ ، ثُمَّ قالَ لَها : « يا أُمّاهُ ، هَلْ تَعْرِفينَني ؟»

نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَأَطالَتِ النَّظَرَ ، وَحَدَّقَتْ فيهِ ، وَأَطالَتِ التَّحْديقَ ، ثُمَّ قالَتْ : « لا ، يا وَلَدي .»

قالَ : « يا أُمّاهُ ، أَنا ضَيْفُكِ بِالأَمْسِ ، يَوْمَ كَذا وَكَذا !»

قالَتْ : « بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي ، يا وَلَدي ! كَيْفَ أَنْتَ ؟ وَكَيْفَ صاحِباكَ ؟»

قالَ : « بِخَيْرٍ ، يا أُمّاهُ .»

ثُمَّ اشْتَرى لَها مِنْ شِياهِ الصَّدَقَةِ أَلْفَ شاةٍ ، وَأَمَرَ غُلامَهُ أَنْ يُعْطِيَها أَلْفَ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ بَعَثَ بِها مَعَ غُلامِهِ إِلى أَخيهِ الحُسَيْنِ ، فَأَعْطاها الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ مِثْلَ ما أَعْطاها أَخوهُ ، ثُمَّ بَعَثَ بِها مَعَ غُلامِهِ إِلى ابْنِ عَمِّهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، فَقالَ لَها عَبْدُ اللهِ : « ماذا أَعْطاكِ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ ؟»

قالَتْ : « أَعْطَياني أَلْفَيْ دِرْهَمٍ ، وَأَلْفَيْ شاةٍ . بارَكَ اللهُ

فيهما !»

وكانَ عَبْدُ اللهِ أَوْسَعَ ثَراءً مِنِ ابْنَيْ عَمِّهِ ، وَأَكْثَرَ مالاً ، فَقالَ لِغُلامِهِ : « أَعْطِها مِثْلَ عَطِيَّتَيْهِما . »

فَرَجَعَتِ العَجوزُ إلى زَوْجِها ، وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْها بِأَرْبَعَةِ آلافِ شاةٍ ، وَأَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، وَقالَتْ لَهُ : « هَذا جَزاءُ شاةٍ واحِدَةٍ . إنَّهُمْ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ !»

القَصّارُ (*) و النُّعْمانُ

أَرِقَ الأميرُ « المَهْدِيُّ » بْنُ المَنْصورِ أَرَقًا شَديداً ؛ فَقَدْ جَفاهُ النُّعاسُ ، وَطَفِقَ يَتَقَلَّبُ عَلى فِراشِهِ كَأَنَّما هُوَ فِراشٌ مِنَ الشَّوْكِ ، وَراحَ يَبْحَثُ في ذِهْنِهِ عَمَّنْ يُسَلِّيهِ ، وَ مِنَ الأَرَقِ يُنَجِّيهِ ، فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ مُؤَدِّبِهِ « الشَّرَفِيِّ بْنِ القَطامِي » الَّذي كانَ يُساكِنُهُ قَصْرَهُ ، وَيَأْخُذُهُ بِحِفْظِ أَيّامِ العَرَبِ وَشِعْرِها ، وَيُفَقِّهُهُ في تاريخِها وَأَنْسابِها .

قالَ المَهْدِيُّ : « يا شَرَفِيُّ ، أَرِحْ قَلْبي بِشَيْءٍ يُلْهيهِ . »

قالَ الشَّرَفِيُّ : « نَعَمْ ، أَصْلَحَ اللهُ الأَميرَ !

« ذَكَروا أَنَّ النُّعْمانَ بْنَ المُنْذِرِ مَلِكَ الحيرَةِ كانَ لَهُ نَديمانِ صَديقانِ ، رَبَطَتِ الأُلْفَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُما ، فَباتا لا يُفارِقانِهِ في لَهْوِهِ وَجِدِّهِ ، وَلا يَغيبانِ عَنْهُ في نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ ،

* القصّار : المبيّض للثياب ؛ وهو الذي يهيئ النسيج بعد نسجه ببله ودقه بالقصرة ، وهي مدقة خشبية .

يَسْتَشيرُهُما في كُلِّ ما يَعْرِضُ لَهُ مِنْ أمورٍ ، وَلا يَقْطَعُ أمْراً دونَهُما ، وَلا يَصْفو لَهُ العَيْشُ بِدونِهِما .

« وَبَيْنَما هُمْ ذاتَ لَيْلَةٍ يَلْهونَ وَيَشْرَبونَ ، وَيَعْبَثونَ وَيَتَضاحَكونَ ؛ إذْ غَلَبَهُمُ الشَّرابُ ؛ فَنامَ الصَّديقانِ ، وَظَلَّ النُّعْمانُ يَقْظانَ كالنّائِمِ : عَيْناهُ مَفْتوحَتانِ ، وَلَكِنَّهُ لا يَكادُ يُبْصِرُ شَيْئاً . اخْتَلَطَتِ الأشْياءُ أمامَ ناظِرَيْهِ ، وَراحَتْ تَتَأرْجَحُ ذاتَ اليَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ . وَفَجْأةً وَقَعَتْ عَيْناهُ عَلى سَيْفٍ مُعَلَّقٍ عَلى جُدْرانِ الحُجْرَةِ ، فامْتَدَّتْ يَدُهُ إلَيْهِ ، وَسَلَّهُ مِنْ غِمْدِهِ ، وَنَظَرَ إلى صاحِبَيْهِ وَهُما يَغِطّانِ في نَوْمٍ عَميقٍ ، فَأهْوى عَلَيْهِما بِالسَّيْفِ ، فَحَزَّ رَقَبَتَيْهِما ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ ؛ فَنامَ !

« لَمّا صَحا مِنْ نَوْمِهِ ، سَألَ عَنْ صاحِبَيْهِ ؛ فَأخْبَرَهُ الخَدَمُ بِما صَنَعَ ؛ فَإذا هُوَ يَجْزَعُ جَزَعاً شَديداً ، وَيَعَضُّ أصابِعَهُ نَدَماً عَلى فِراقِ صاحِبَيْهِ . وَ يَشْتَدُّ بِهِ الحُزْنُ ، فَلا يَسيغُ طَعاماً ، وَلا شَراباً ؛ فَيَمْتَنِعُ عَنْهُما ، وَيُقْسِمُ ألا

يَشْرَبَ بَعْدَ اليَوْمِ شَراباً يُزْعِجُ قَلْبَهُ ، وَيُغَيِّبُ عَقْلَهُ ، وَيُعْقِبُهُ هَذا النَّدَمَ المُفْرِطَ ؛ الَّذي لا يَجِدُ لِلْخُروجِ مِنْهُ مَنْفَذاً !

« وَفَكَّرَ في وَسيلَةٍ يُخَفِّفُ بِها حِدَّةَ هَذا الحُزْنِ الشَّديدِ ، الَّذي يَكادُ يُهْلِكُهُ . جَمَعَ مُسْتَشاريهِ وَأعْوانَهُ ، فَكُلُّهُمْ لَمْ يَرَ رَأياً يُريحُ فُؤادَهُ .

« وَبَيْنَما هُوَ غارِقٌ في تَفْكيرِهِ ، لا يُفارِقُهُ طَيْفُ صاحِبَيْهِ لَحْظَةً مِنْ لَيْلٍ أوْ نَهارٍ ، كَأنَّما يُذَكِّرانِهِ بِفَعْلَتِهِ – إذِ انْبَثَقَتْ في ذِهْنِهِ فِكْرَةُ أنْ يَبْنِيَ عَلى قَبْرَيْهِما بِناءَيْنِ ، وَأنْ يُطْلِقَ عَلَيْهِما اسْمَ « الغَرِيّانِ » ؛ لأنَّهُ عَزَمَ عَلى أنْ يُغَرِّيَهُما وَيَطْلِيَهُما بِدَمِ كُلِّ شَخْصٍ يَقْتُلُهُ في يَوْمِ بُؤْسِهِ .

« وَسَنَّ لِلنّاسِ سُنَّةَ أنَّ كُلَّ مَنْ مَرَّ بِهَذَيْنِ الغَرِيَّيْنِ مِنْ مَلِكٍ وَغَيْرِهِ – فَعَلَيْهِ أنْ يَسْجُدَ لَهُما إجْلالاً وَتَعْظيماً .

« وَكانَتِ العادَةُ أنَّ المَلِكَ إذا سَنَّ سُنَّةً تَوارَثَها القَوْمُ ، وَفَرَضوها عَلى أنْفُسِهِمْ ، وَأوْصَوْا بِها أبْناءَهُمْ .

« مَكَثَ النّاسُ زَمَناً طَويلاً يُؤَدّونَ هَذِهِ السُّنَّةَ ،

وَيُحيطونَها – كُلَّما مَضى الزَّمَنُ – بِهالَةٍ مِنَ التَّوْقيرِ وَالتَّقْديسِ ، حَتّى أَصْبَحَ القَتْلُ جَزاءَ مَنْ أَغْفَلَ هَذِهِ السُّنَّةَ ، كائِناً مَنْ كانَ ، لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يُسْفَكَ دَمُهُ ، وَيُطْلى بِهِ الغَرِيّانِ – لَهُ أَنْ يَطْلُبَ أَمْرَيْنِ ، يُجابُ إِلَيْهِما كَيْفَما كانا.

« وَفي أَحَدِ الأَيّامِ مَرَّ بِالغَرِيَّيْنِ رَجُلٌ قَصّارٌ ، يُبَيِّضُ الثِّيابَ ، وَمَعَهُ مِدَقَّتُهُ الَّتي يَدُقُّ بِها النَّسيجَ بَعْدَ أَنْ يَبُلَّهُ ؛ لِيُهَيِّئَهُ وَيُعِدَّهُ لِلتَّبْييضِ – مَرَّ هَذا الرَّجُلُ القَصّارُ بِالغَرِيَّيْنِ ، فَقالَ لَهُ القائِمونَ بِحِراسَتِهِما : « اُسْجُدْ كَما أَمَرَ المَلِكُ.»

« فَأَبى القَصّارُ أَنْ يَفْعَلَ ، فَقالوا لَهُ : « إِنَّكَ بِهَذا تَقْتُلُ نَفْسَكَ ؛ فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذا جَزاءُ مَنْ لَمْ يَسْجُدْ .»

« وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلى مَوْقِفِهِ ، وَأَبى أَنْ يَسْجُدَ .

« فَلَمْ يَسَعِ القائِمينَ عَلى أَمْرِ الغَرِيَّيْنِ إِلا أَنْ يَحْمِلوهُ إِلى المَلِكِ ؛ لِيَرى فيهِ رَأْيَهُ ، وَلِيُنَفِّذَ فيهِ حُكْمَهُ .

« وَقَفَ القَصّارُ مَرْعوباً أَمامَ المَلِكِ ، وَفي يَدِهِ مِدَقَّتُهُ ، وَالمَلِكُ يَقولُ لَهُ في صَوْتٍ غَليظٍ جافٍّ : « ما مَنَعَكَ مِنْ

أَنْ تَسْجُدَ أَيُّها الرَّجُلُ ؟»

« قالَ القَصّارُ : « لَقَدْ سَجَدْتُ ، وَلَكِنَّهُمْ كَذَبوا عَلَيَّ .»

« قالَ المَلِكُ : « ما تَعَوَّدْنا مِنْهُمْ كَذِباً .»

« أَقْسَمَ القَصّارُ بِأَغْلَظِ الأَيْمانِ إِنَّهُ قَدْ سَجَدَ ، وَلَكِنَّ المَلِكَ لَمْ يُعِرْهُ آذاناً مُصْغِيَةً ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلى حَلِفِهِ ، وَقالَ لَهُ : « إِنَّ لَكَ – أَيُّها الرَّجُلُ – أَنْ تَطْلُبَ أَمْرَيْنِ ، وَأَنْتَ مُجابٌ إِلَيْهِما ، وَبَعْدَ ذَلِكَ فَأَنْتَ مَقْتولٌ لا مَحالَةَ .»

« قالَ القَصّارُ : « أَيُّها المَلِكُ العَظيمُ ، أَ تَقْتُلُني بِقَوْلِ هَؤُلاءِ ؟»

« قالَ المَلِكُ : « نَعَمْ ، وَسَنُغَرّي الغَرِيَّيْنِ بِدَمِكَ .»

« « وَإِذا كانَ كَذَلِكَ ؛ فَلِيَ الحَقُّ أَنْ أَطْلُبَ أَمْرَيْنِ ؟»

« قالَ المَلِكُ : « نَعَمْ ، وَأَنْتَ مُجابٌ إِلَيْهِما مَهْما كانا .»

« قالَ القَصّارُ : « إِذا لَمْ يَكُنْ مِنَ القَتْلِ مَفَرٌّ – فَإِنَّ مَطْلَبي هُوَ أَنْ أَضْرِبَ رَقَبَةَ المَلِكِ بِمِدَقَّتي هَذِهِ .»

« قالَ المَلِكُ : « يا جاهِلُ ! وَما يُفيدُكَ ضَرْبُ عُنُقي ؟

لَوْ سَأَلْتَني أَنْ أُجْرِيَ على عِيالِكَ مالاً يُعينُهُمْ – كانَ خَيْراً لَكَ ، وَلَهُمْ .»

« قالَ القَصّارُ : « لا أَرْضى إلا بِضَرْبَةٍ لِرَقَبَةِ المَلِكِ .»

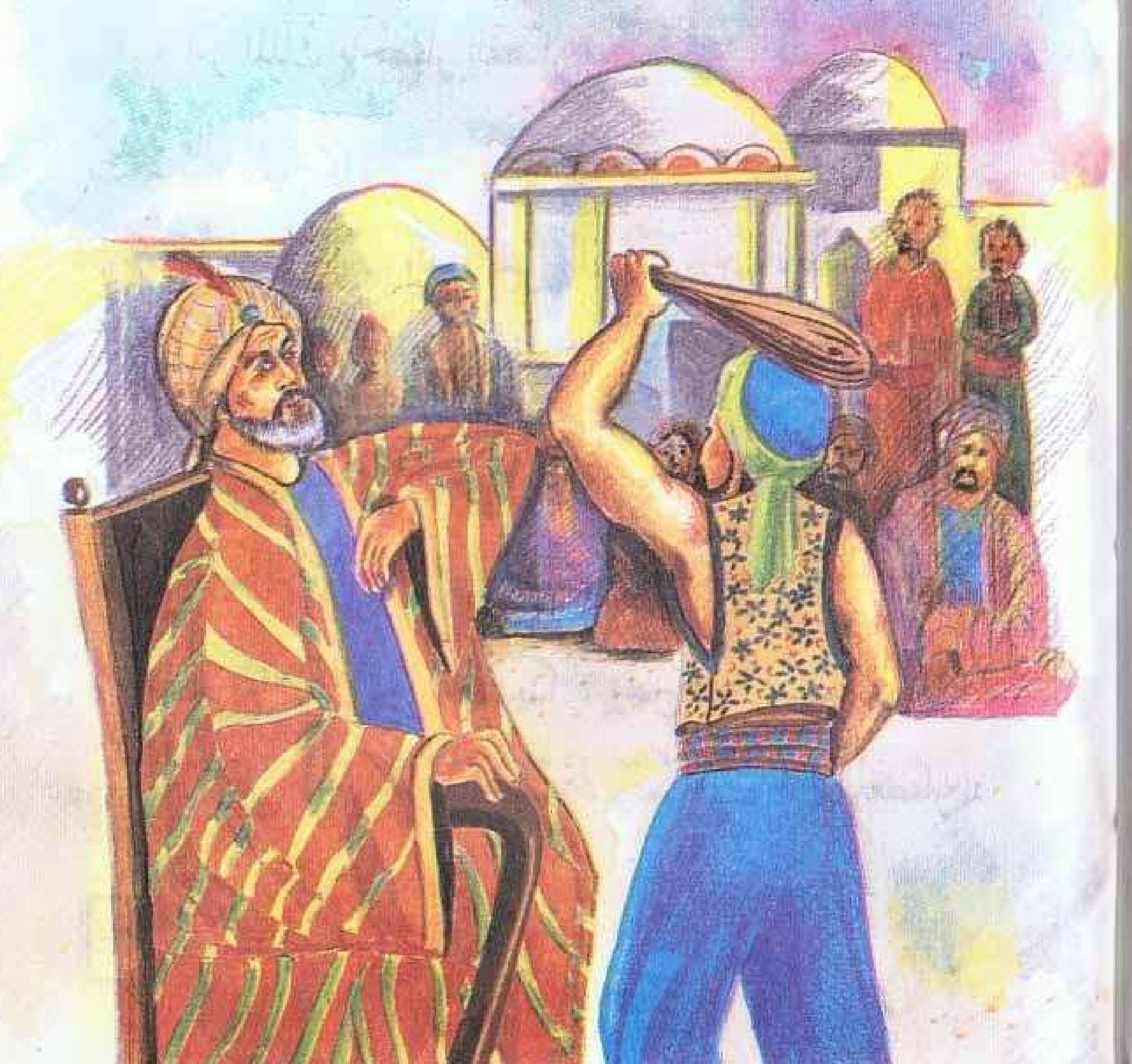
« نَظَرَ المَلِكُ إلى مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُسْتَشارينَ وَالوُزَراءِ ، وَقَدْ بَدا في عَيْنَيْهِ السُّخْطُ عَلى هَذا القَصّارِ ، الَّذي اخْتارَ مَطْلَبًا وَعْرًا ما كانَ يَجولُ بِخاطِرِ المَلِكِ حينَما سَنَّ سُنَّتَهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ : « ما تَرَوْنَ فيما طَلَبَهُ هَذا القَصّارُ الجاهِلُ ؟»

« قالوا : « رَأْيُنا أَنَّ هَذِهِ سُنَّةٌ شَرَعْتَها لِلنّاسِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما في نَقْضِ السُّنَنِ مِنْ عَظيمِ الإِثْمِ . كَما أَنَّكَ – يا مَوْلانا – إذا نَقَضْتَ هَذِهِ السُّنَّةَ ؛ كانَ ذَلِكَ سَبيلاً إلى نَقْضِ سُنَنٍ أُخْرى ، ثُمَّ يَكونُ لِمَنْ يَجيءُ بَعْدَكَ مِنَ المُلوكِ أَنْ يَنْقُضَ كَما نَقَضْتَ ، وَبِذَلِكَ تَبْطُلُ السُّنَنُ .»

« قالَ المَلِكُ : « إِذاً فارْغَبوا إلى هَذا القَصّارِ الجاهِلِ أَنْ يَحْكُمَ بِما يَشاءُ ، وَيُعْفِيَني مِنْ هَذا الطَّلَبِ ، فَإِنّي أُجيبُهُ إلى ما يَطْلُبُ وَلَوْ طَلَبَ نِصْفَ مُلْكي !»

« بَذَلَ الوُزَراءُ وَالْمُسْتَشارونَ جَهْدَهُمْ في أَنْ يُثْنوا القَصّارَ عَنْ عَزْمِهِ ، وَلَكِنَّ مُحاوَلاتِهِمْ باءَتْ بِالفَشَلِ .

« لَمْ يَجِدِ المَلِكُ مَفَرًّا أَمامَ إِصْرارِ القَصّارِ وَعَزْمِهِ غَيْرَ أَنْ يَخْضَعَ لِحُكْمِهِ ، فَقَعَدَ مَقْعَدًا عامًّا ، حَضَرَهُ النّاسُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَجاءَ القَصّارُ فَهَزَّ مِدَقَّتَهُ كَما لَمْ يَهُزَّها مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ ضَرَبَ بِها أَحَدَ جانِبَيْ عُنُقِ المَلِكِ ؛ فَلَمْ يَتَمالَكِ المَلِكُ نَفْسَهُ ، وَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ !



« ظَلَّ المَلِكُ سَنَةً كامِلَةً يَشْكو أَلَمَ الضَّرْبَةِ ، لا يَكادُ يَسيغُ طَعاماً وَلا شَراباً ، وَلا يَسْتَطيعُ كَلاماً ، وَلا يَكادُ يُفيقُ حَتّى تُعاوِدَهُ الغَشْيَةُ ، وَتَنْتابَهُ الغَيْبوبَةُ .

« فَلَمّا تَماثَلَ لِلشِّفاءِ ، وَرُدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ عافِيَتِه ، وَأَكَلَ وَشَرِبَ - كانَ أَوَّلَ شَيْءٍ صَنَعَهُ أَنْ سَأَلَ عَنِ القَصّارِ ، أَيْنَ هُوَ ؟ فَقيلَ لَهُ : « إِنَّهُ مَحْبوسٌ .»

« أَمَرَ المَلِكُ بِإِحْضارِ القَصّارِ مِنْ سَجْنِهِ ، فَلَمّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قالَ لَهُ :

« أَيُّها الرَّجُلُ ، لَقَدْ بَقِيَ لَكَ أَمْرٌ آخَرُ فاطْلُبْهُ ؛ فَإِنّي قاتِلُكَ لا مَحالَةَ .»

« قالَ القَصّارُ : « ما دامَ القَتْلُ مَصيري ، فَإِنّي أَطْلُبُ أَنْ أَضْرِبَ الجانِبَ الآخَرَ مِنْ عُنُقِ المَلِكِ بِمِدَقَّتي هَذِهِ !»

« جَزِعَ المَلِكُ جَزَعاً شَديداً ، وَأَدْرَكَهُ الرُّعْبُ وَالهَوْلُ ، فَسَقَطَ عَلى وَجْهِهِ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ ، وَلَمّا أَفاقَ قالَ لِلْقَصّارِ :

« وَيْلَكَ ! أُتْرُكْ هَذا الأَمْرَ الَّذي لا يُفيدُكَ إِلى أَمْرٍ آخَرَ يُفيدُكَ ، وَسَأُجيبُكَ إِلَيْهِ كائِناً ما كانَ .»

« قالَ القَصّارُ : « لَيْسَ لي ، يا مَوْلايَ ، حُكْمٌ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَهُوَ حَقّي ، وَأَنا عَلَيْهِ حَريصٌ .»

« نَظَرَ المَلِكُ إِلى مَنْ حَوْلَهُ نَظْرَةَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ، وَقالَ لَهُمْ : « ما تَرَوْنَ ؟»

« قالوا : « هَذا حَقُّهُ .»

« قالَ المَلِكُ : « وَيْحَكُمْ ! لَوْ ضَرَبَني الأُخْرى لَما ذُقْتُ طَعاماً ، وَلا شَرِبْتُ شَراباً أَبَداً ؛ فَأَنا أَعْرِفُ ما أَصابَني .»

« قالوا : « لا حيلَةَ عِنْدَنا !»

« لَمّا أَبْصَرَ المَلِكُ القَصّارَ وَقَدْ بَرَقَتْ عَيْناهُ ، وَبَدا عَلَيْهِ التَّحَفُّزُ وَالتَّأَهُّبُ ، وَاهْتَزَّتْ مِدَقَّتُهُ في يَدِهِ - قالَ لَهُ :
« أَظُنُّ أَنَّني قَدْ سَمِعْتُكَ - يَوْمَ جاءُوا بِكَ إِلَيَّ - تَقولُ : إِنَّكَ قَدْ سَجَدْتَ ، وَإِنَّهُمْ قَدَ كَذَبوا عَلَيْكَ .»

« قالَ القَصّارُ : « نَعَمْ ، قَدْ قُلْتُ ذَلِكَ . وَلَكِنَّكَ ، يا مَوْلايَ ، لَمْ تُصَدِّقْني ، وَصَدَّقْتَهُمْ .

« قالَ المَلِكُ : « أَنْتَ سَجَدْتَ إذاً ؟»

« قالَ القَصّارُ : « نَعَمْ ، يا مَوْلايَ !»

« حينَئِذٍ وَثَبَ المَلِكُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَثْبَةً سَريعَةً ، وَأَقْبَلَ عَلى القَصّارِ يَحْتَضِنُهُ ، وَيُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَسْطَ دَهْشَةِ الحاضِرينَ وَذُهولِهِمْ ، وَتَعَجُّبِهِمْ مِمّا طَرَأَ عَلى المَلِكِ مِنْ تَغْييرٍ ، فَبَدَّلَ حالَهُ هَذا التَّبْديلَ الغَريبَ – وَيَقولُ لَهُ :

« أَشْهَدُ إِنَّكَ لَصادِقٌ ، وَإِنَّ هَؤُلاءِ القائِمينَ عَلى أَمْرِ الغَرِيَّيْنِ لَكاذِبونَ . لَقَدْ وَلَّيْتُكَ مَكانَهُمْ ، وَحَكَّمْتُكَ في أَمْرِهِمْ .»»

ضَحِكَ الأَميرُ المَهْدِيُّ ضَحِكاً شَديداً حَتّى اسْتَلْقى عَلى قَفاهُ ، وَفَحَصَ الأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ . وَسُرَّ سُروراً بالِغاً بِمُؤَدِّبِهِ الَّذي عَرَفَ كَيْفَ يُسَرّي عَنْهُ ، وَيُفَرِّجُ هَمَّهُ ، وَيُذْهِبُ

أَرَقَهُ ، فَقالَ لَهُ :

« أَحْسَنْتَ ، يا شَرَفِيُّ .»

وَأَمَرَ لَهُ بِجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ .



الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

اليَنابيع

١- سَيف الإحسَان وَقصَص أخرى
٢- حَبّات العقد وَقصَص أخرى
٣- عَنترة بْن شدّاد: مَولد البَطل
٤- عَنترة بن شدّاد: عبلة والصّبي المقاتِل
٥- البَاحِث عَن الحَظ وَقصَص أخرى
٦- عَنترة بن شدّاد: السّيَف وَالكلمات
٧- عَنترة بن شدّاد: يَوم عَنترة
٨- رحْلة السّندبَاد المَجهُولة
٩- الشّعْرَة الذّهبيَّة
١٠- مَشورَة قصَير وَقصَص أخرى



مَكتبة لبنَان نَاشِرُون
الشركَة المصريّة العَالميّة لِلنشر - لونجمان